المجلس الأول

شرح

المواهب الربانية في الآيات القرآنية

للعلامة السعدي

للدكتور أبي بكر القاضي

www.abobakrelkady.net

المجلس الأول

[تفسير وتدبر لبعض آيات الله تبارك وتعالى]

قضية التدبر- قضية تفسير كتاب الله تبارك وتعالى- ينبغي أن يكون لها منزلة خاصة عند السائرين إلى الله عامة، وعند طلبة العلم خاصة.
ينبغي أن نفهم أن التدبر لابد أن يكون في إطار من العلم بالتفسير وفهم أدواته، وغير ذلك؛ حتى لا يكون المتدبرون في وادٍ بعيد عن تفسير كتاب الله العلمي المنضبط.

ينبغي أن يُفسر كتاب الله -جل وعلا-:

- أولاً القرآن بالقرآن.
- ثُمّ القرآن بالسنة (أحاديث النبي -ﷺ-).
- ثُمّ بكلام الصحابة، والتابعين، وتابعيهم.
- ثُمّ باللغة العربية، وأوجه اللغة العربية.
- ثُمّ بالرأي، والاجتهاد، والاستنباط.

فآخر مرحلة هي الرأي، والاجتهاد بعد استنفاذ كل هذه الأدوات.

والتدبر: هو النظر إلى دبر الأشياء، النظر إلى مآلات الأشياء، وإنزال الآيات القرآنية ومعانيها على النفس والواقع، على نفس المتدبر وعلى واقعه، وأن تحل مشاكل الإنسان، ومشاكل الأمة والمجتمع من خلال كتاب الله جل وعلا .

والقرآن لا يزال نبعًا صافيًا نقيًا لهذه المعاني، ولكن ينبغي أن تكون في إطار التفسير العلمي المنضبط للآية.

فالتَفسير العلمي المنضبط هو كإطار ثم بعد ذلك إخراج المعاني التدبرية لا نهاية له، ولا حد له.

ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه : "مَنْ أَرَادَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَلْيُثَوِّرِ الْقُرْآنَ."

والتثوير: هو من المُدارسة أن نثور المعاني، وكأنَّ المعاني تثور، وتغلي كغليان الماء في القدر.

وهذا لا يكون إلا لطلبة العلم، و لمن فهم كلمات القرآن، ومعانيها.
لا نقول أن التدبر خاص بالعلماء، والفقهاء، والمجتهدين؛ إنّما تدبر القرآن في الحقيقة قد خاطب الله به الكفار، والمنافقين، قال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء:٨٢]
وقال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٤] هذا الكلام كان موجهًا للمنافقين.

وللكفار، قال تعالى: {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ} [المؤمنون: ٦٨] ، وقال تعالى: {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص: ٢٩]

• هاتان الآيتان في سورة المؤمنون وسورة ص آيتان مكيتان، كان المخاطب فيهما الكفار.
• والآيتان في سورة النساء وسورة محمد مدنيتان، وكان المخاطب فيهما المنافقون، وهذا ظاهر من السياق.

فالتدبر خوطب به الكفار، وخُوطب به المنافقون فما بالك بعباد الله المؤمنين؟!
لا شك أنه واجب.....
لتدبر ليس سنة ولا مستحب، إنّما هو واجب.

فكل من قرأ القرآن ينبغي أن يفهمه، ويفهم ما يدل عليه ، وهذا يستلزم منه أن يفهم الكلمات الغريبة، ومعاني الآيات، أي: أن يفهم التفسير، فهذا واجب عليه؛ حتى يستطيع أن يتدبر، ويتذكر، ويطبق، و يتخلق بالقرآن.

كما سئلت عائشة -رضي الله عنها-عن خلق النبي-ﷺ- فقالت: "كان خُلُقُه القُرآنَ" جامع الصحيح، كأنه قرآن يمشي على الأرض.

فلا ينبغي أبدًا أن تكون علاقتنا مع القرآن علاقة ورد ثابت فقط: نقرأه، أو نحْفظه، أو نُراجعه، ولا نقلل من قيمة القراءة، والحِفظ، و المُراجعة، والأسانيد، والإجازات، والقراءات، لا نقلل من قيمة كل ذلك، ولكن نقول إن كل هذه الأمور وسائل، والغاية منها: هو الفهم، والتَّخشع والتذكر مع القرءان.

قال تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} [القمر: ١٧]
وقال أيضًا : {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق: ٣٧]

- فنحن نحتاج أن نقرأ القرءان؛ لنتذكر.
- نحن نحتاج أن نقرأ القرءان؛ لنخشع.
- نحن نحتاج أن نقرأ القرءان؛ لنتوب ولنؤب إلى الله-جل وعلا-.
- نحن نحتاج أن نقرأ القرءان؛ لنتعلم معاني التوحيد، لنتعلم معاني الخضوع والخشوع لله، والحب والشوق والرجاء وغير ذلك.
- نحن نحتاج أن نقرأ ونتدبر القرآن؛ لنعرف الأمر والنهي الذي أمر الله به ونهى عنه، فنتبع الأوامر وننتهي عن النواهي.
-نحن نحتاج أن نقرأ القرءان؛ لننظر إلى الدار الآخرة ونزداد زهدًا في الدنيا، وإقبالاً على الآخرة، ونفهم حقيقة الدنيا وحقائق الوجود من حولنا، فنعيش الوظيفة التي خلقنا الله من أجلها: وهي وظيفة (العبودية لله جل وعلا)

إذًا لا ينبغي أن تكون علاقتنا بالقرآن علاقة سطحية، أو علاقة حفظ، أو مراجعة فقط!

والدليل على ذلك: أن صحابة النبي-ﷺ- لم يحفظوا القرآن كاملًا، وأن أبو بكر، وعمر-رضي الله عنهما- لم يختموا المصحف حفظًا، ولم يجمع القرآن في عهد النبي -ﷺ- إلا عدد قليل من الصحابة، وهم أبو الدرداء، ومعاذ، وأبي بن كعب، وغيرهم.

وهذا يدل على أن الحفظ لم يكن هو الشغل الشاغل عند الصحابة، ولانقلل من أهمية الحفظ، لكنه لم يكن الغاية الكبرى، بل كانت الغاية الكبرى أن يسمع الآية فينْفعل بها وينطلق يعمل بها.

يقول الله تعالى:{ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ • وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ•} [التوبة : ١٢٤،١٢٥]

إذًا ينبغي أن ينزل القرآن على القلب، وأن يرى هل زاد القلب إيمانًا أم لا؟
هذا مع كل آية تقرأها، ومع كل آية تسمعها، ومع كل آية تفهم معناها، ومع كل آية ينبغي أن تنظر إلى قلبك.

قال تعالى:{ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ • نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ • عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ •} [الشعراء: ١٩٢-١٩٤]

إذًا ينبغي أن ينزل القرآن على القلب، وهذا القلب ينبغي أن يكون عالمًا؛ حتى يفهم، ويعي، ويستوعب.

إذًا قضية التدبر ليست قضية ترفيهية، بل هي واجبة وليست مستحبة.

قال رسول الله -ﷺ-عن خواتيم آل عمران: (ويلٌ لِمَن قرَأها ولم يتفكَّرْ فيها) صحيح ابن حبان.

أولًا: إذًا وجود الوعيد دليل على الوجوب، ودليل على النهي عن عدم التدبر.

ثانيًا: التدبر ليس خاصًا بالعلماء، بل خوطب به الكفار والمنافقين.
لذا ينبغي على عامة الأمة أن يفقهوا كيفية التدبر، وأن يفقهوا المعاني البسيطة لكلمات القرآن الغريبة، ثُم المعاني الكلية لتفسير القرآن فَيستطيعون أن يتدبروا .

ثالثًا: قلنا إن التدبر: هو الغاية من الحفظ، والمراجعة، والقراءة والتلاوة، ومن قيام الليل بالقرآن، وغاية هذا هو تدبر كتاب الله جل علا.

وفي الحقيقة شهر رمضان شُرع فيه الصيام، والقيام، والتهجد، والإكثار من تلاوة القرآن في نهار رمضان وفي ليلْه كل هذا في الحقيقة؛ لتحصيل تدبر القرآن؛ لأن شهر رمضان هو الموسم الذي نزل فيه القرآن، فينبغي على الأمة أن تحتفل فيه بنعمة القرآن.

قال تعالى:{ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} [البقرة: ١٨]

لم يذكر هذا الشهر بصفة غير هذه، أنه هو الشهر الذي أنزل فيه القرآن، فمن باب شكر النعمة أن نصوم نهاره ونقيم ليله، وأن نكثر من ذكر الله وطاعة الله فيه؛ حتى يذهب عن القلب قساوته، فيستطيع أن يتدبر القرآن.
ولذا في شهر رمضان ينبغي أن ينشغل جميع الناس بالقرآن، ولا أقول فقط بتعدد الختمات، إنّما يكون بتَفهمه، وبتدَبره.
أن يكون شهر رمضان بمثابة دورة تدريبية للقرب من القرآن، وفهم كتاب الله، دورة تدريبية لأن نكون ربانيّين.

قال تعالى:{ وَلَـٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ } [آل عمران : ٧٩]

✳كيف أكون ربانيًّا؟

إذا تدارست كتاب الله جل وعلا، وتَدارست ما دلت عليه الآيات والنصوص من العلوم والفهوم وغير ذلك، وهذا لا يكون إلا بوجود علاقة بينك وبين كتاب الله.

إذًا شهر رمضان فرصة!

ينبغي أن نستعد لهذا الشهر، رجب شهر البذر، وشعبان شهر السقي، ورمضان شهر الحصاد.

الذي يزرع طول العام علاقة وثيقة مع القرءان، الذي يزرع طوال العام قيامًا بالقرآن، واهتمامًا بكتاب الله وفهمًا لكتاب الله جل وعلا، الذي يصبر ويصابر ويُرابط على ورده طوال العام، ويحافظ على هذه العلاقة بينه وبين كتاب الله، وهذه المعاشرة بينه وبين كتاب الله طول العام، لا بد أن يطعمه الله في شهر رمضان.

أن يطعمه فهمًا وعلمًا، كما قال ﷺ: (إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي ويَسْقِينِي) البخاري و مسلم.

وكلما أقبلت على القرآن، كلما استزدت من علومه؛ لأن القرآن عزيز} وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ} [فصلت:٤١]

هو عزيز، وفي الوقت نفسه كريم، قال تعالى: {إِنَّهُ لَقُرآنٌ كَرِيم • في كِتابٍ مَكْنُون} [الواقعة:٧٨،٧٧]

- كريمٌ: أي أنه لن يردك إذا أقبلت عليه خاليًا.
- عزيز: أي أنه لن يقبل عليك حتى تقبل عليه.

لن يكون القرآن سهلًا ميسرًا لك، إلا إذا أقبلت عليه، وأنفقت بالفعل من وقتك في فهمه وتدبره.

نقول: أن القرآن عزيز، وكريم.

عزيز: لا يقبل عليك حتى تقبل عليه، ولن يعطيك من معانيه حتى تقبل عليه، وفي الوقت نفسه هو كريم، بمعنى: أنك إذا أقبلت عليه لن يردك خاليًا.

وعلى حسب ما في قلبك من الصدق والإخلاص واليقين بالقرآن والإقبال عليه، على حسب ما يعطيك القرآن، على حسب ما ييسر الله تبارك و تعالى لك من فهم كتاب الله جل وعلا.

فالله الذي يفهم قال تعالى: { فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ} [الأنبياء: ٧٩]
قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [البقرة:٣١]
قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} [الأنبياء: ٥١]

فالله هو الذي علم إبراهيم -عليه السلام-.
والله الذي علم آدم -عليه السلام-.
والله الذي فهم سليمان -عليه السلام-.

نلخص ما ذكرناه في عدّة نقاط:
١- أن التدبر واجب، وليس مستحب.
٢- أن التدبر ليس خاصًا بطلبة العلم والعلماء.
٣- أن التدبر: هو الغاية في الحقيقة من القراءة، والتلاوة، والحفظ، والمراجعة، وينبغي أنه يعامل على أنه غاية وليس وسيلة.
٤- أهم موسم من مواسم تدبر القرآن هو شهر رمضان، وينبغي له من استعداد حتى يفتح الله -تبارك وتعالى- على العبد في رمضان.

وكلامنا دائمًا: "ينبغي أن تكون السنة كلها رمضان"، وهذا من باب التحفيز؛ لكن في الحقيقة لن تكون السنة كلها رمضان؛ لأن رمضان فيه نفحات، وفيه رحمات، ويحدث الله -جل وعلا- فيه فتح عظيم على عباده.
لكن ينبغي على العبد أن يكون على وتيرة واحدة طيلة العام، من القيام بالفرائض واتباعها بالنوافل على قدر ما يستطيع.

قال ﷺ: "إنَّ لربِّكم في أيامِ دهرِكم نَفَحاتٍ، ألا فتَعَرَّضوا له، لعله أن يصيبَكم نَفْحَةٌ منها فلا تَشْقَوْنَ بعدها أبدا."
إذًا هناك نفحات، مزيد من الرحمة، مزيد من البركة، مزيد من عطاء الله جل وعلا.
هذا المزيد في الحقيقة ينبغي أن تستعد له، وهذه الدورة مخصصة للاستعداد لهذه النفحات.

⏪ الشيخ السعدي -رحمه الله تعالى- كتب هذه التأملات القرآنية في شهر رمضان بما فتح الله -تبارك وتعالى- عليه، فهو كان عالمًا راسخًا في العلم، ومع ذلك كان ينتظر النفحات والرحمات من الله، وينتظر الفتح من الله، ويتعبد إليه كثيرًا حتى يفتح الله عليه.
هذا هو دَيْدَن العلماء.

العالم: هو أشد الناس افتقارًا إلى الله جل وعلا، وأشد الناس استغناء عن الناس.
والجاهل: هو أشد الناس استغناء عن الله جل وعلا، وأشد الناس افتقارًا للناس.

فكلما ازداد الإنسان علمًا، كلما زاد انكسارًا، كلما زاد افتقارًا، ويعلم أن الله هو الذي يفهم، وأن الله هو الذي يعلم، وأن الله تبارك وتعالى هو الذي يأخذ بالقلب ويفهمه.

سنتطرق لمجموعة من الفوائد التي كتبها الشيخ السعدي-رحمه الله تعالى- في شهر رمضان، نبدأ بإذن الله -عز وجل- بقراءتها والتعليق عليها والنظر إلى كيفية الاستنباط.
بمعنى: (أننا نريد أن نكون من المتدبرين)

لا نريد أن نكتفي بأن نسمع الدرس، أو نسمع الدورة، أوننهي الكتاب، بل نريد أن ننمي في حسنا ملكة التدبر.

كثيرمنّا حين يتحدث عن التدبر يتحدث عن وسائل، ومفاتيح، وطرق....
وقضية التدبر في الحقيقة لا تحتاج إلى طرق وخطوات وغير ذلك، على قدر ما هي تحتاج: إلى ممارسة، وتدريب، وإطار توضع فيه.

الإطار الذي يوضع فيه موضوع التدبر كما قلنا في أول الأمر، لابد أن يكون منضبط بإطار التفسير العلمي المنضبط: من تفسير كتاب الله بكتاب الله، ثمّ بسنة النبي -ﷺ-، ثم بكلام الصحابة والتابعين والسلف، ثمّ بعد ذلك باللغة وأوجه اللغة، ثمّ بعد ذلك بالرأي و
الاجتهاد، وهذا هو (الإطار العلمي الذي يوضع فيه)

ثمّ بعد ذلك إذا أردت أن تتعلم السباحة فلا بد أن تنزل البحر، فلن أعطيك كل شيء بالنظريات، وعلى السبورة، والداتا شو وغير ذلك؛ بل لا بد أن تُجرب، وأن تذوق.

كيف أعرف أنا على صواب أم خطأ؟

الشيخ ابن عثيمين رحمه الله يقول: "إنك تبدأ أنت تتدبر كتاب الله جل وعلا، وتنظر في الآيات، وتتأمل، وتَستنبط منها ثمّ بعد ذلك ترجع إلى شيخك، أو إلى مربيك، أو إلى معلمك، أو إلى شيخ التفسير أو غير ذلك وتعرض عليه ما سنح لك في ذهنك، قد يُصوب وقد يخطئ، ولكن أنت بذلك تتجرأ، وأنت بذلك تفهم أين تخطئ وأين تصيب، فتَستزيد من المَلكة".

لدينا هنا نماذج للتدبر، بمعنى أننا سَنتدارس نماذج للتدبر.
ننظر كيف تتدبر الشيخ السعدي رحمه الله؟
كيف استنبط؟ وكيف فهم؟
كيف اقترب من القرآن، فقربه القرآن؟

كيف رزقه الله تبارك وتعالى هذه الفتوحات؟
كيفية الاستنباط في هذا؟

وقد تتدارسْنا من زمن بعيد جدًا "القواعد الحِسان في تفسير القرآن" للشيخ السعدي، ودرسنا منها حوالي ثلاثون قاعدة، أو سبعة وعشرون قاعدة، ذكرنا فيها القواعد الاستنباطية، والاستقرائية من كتاب الله جل وعلا، وهي مسجلة ويستطيع أي أحد أن يرجع إليها.

■■ قال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: " لعل من فوائد تأخير ذكر ذلك القتيل عن ذكر الأمر بذبح البقرة في قصة موسى مع بني إسرائيل.

هو هنا يتكلم عن آية[٦٧] من سورة البقرة، هي قصة البقرة من أول قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً} ثم بعد أن ذكر هذه القصة، ذكر الله تبارك وتعالى: {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَأْتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} [البقرة: ٧٢]

إذنْ أصل القصة أنها كانت قصة واحدة؛ أنه حدث في بني إسرائيل حادثة قتل، فحدث بين بني إسرائيل ثأر، فبدأوا يتقاتلون، فلما تقاتلوا قالوا: تتقاتلون وبين أظهُركم نبي الله موسى، فذهبوا إلى موسى-عليه السلام - ليحكم بينهم في قضية القتل.

فقال لهم موسى -عليه السلام -: {إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً}
طبعًا هذا الكلام لم يعجبهم، نحن أتينا إليك، ونحن متقاتلين، وأصبح بيننا دم، وأنت تأمرنا أن نذبح بقرة !!
ما علاقة البقرة بما نحن فيه؟!

هذه هي القضية، كان هذا ابتلاء وامتحان لبني إسرائيل، هل ستَستسلمون لشرع الله جل وعلا، وستقولون سمعنا وأطعنا أم أنكم ستحكمون بعقولكم وتَستدركون على الله جل وعلا، وتنظرون ما هي العلاقة وتقِيسونها بالعقل؟
هذه هي الإشكالية، الإشكالية التي كانت عند بني إسرائيل سمعنا وعصينا... لذلك سورة البقرة كلها قائمة على سمعنا وأطعنا

فبعد أن ذكر الله تعالى الأحكام في سورة البقرة، والتي هي أطول سورة في القرآن. وهي أكثر سورة ذكر فيها الأحكام: كأحكام القتال، وأحكام الحج، وأحكام الصيام، وأحكام الزواج والطلاق، والإيلاء، والرضاعة، وذكر فيها بعض أحكام الربا، والأموال وغير ذلك، وآخرها أحكام الدَين.
كل هذه أحكام: أحكام مالية، وأسرية، وتَعبُدية لله جل وعلا، هذه أطول سورة وردت فيها أحكام ختمها الله تبارك وتعالى بشعار الصالحين، وشعار الطائعين، وشعار المؤمنين: أن يقولوا سمعنا وأطعنا، قال تعالى: {وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ} [البقرة: ٢٨٥]
بخلاف الذين :{ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا }[البقرة:٩٣]

وكانت قصة البقرة رمزًا لهذا؛ ولذلك سميت السورة باسم البقرة.

لكن القضية ليست في البقرة، وإنما القضية في رمزية البقرة في قصة بني إسرائيل، أنهم لم يستسلموا وينصاعوا للشرع، وأن الله تبارك وتعالى أمرهم بشيء فكان ينبغي عليهم أن يأتمروا به، وألا يُدبرون، ويتَذاكون، و يَستدركون على الله جل وعلا.

القصة في الحقيقة قصة واحدة، أن هنالك قتيل وذهبوا ليتحاكموا إلى موسى-عليه السلام-، فسيدنا موسى أمرهم أن يذبحوا بقرة، فقدم الله ذكر قصة البقرة على قصة القتيل، مع أن قصة البقرة نتيجة لقصة القتيل.

لكن لماذا قدم الله قصة البقرة على قصة القتيل؟

لمزيد بيان ذم بني إسرائيل؛ لأن بني إسرائيل استدركوا في قضية البقرة، وفي قصة البقرة {فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ} [البقرة:٧١]
فكان منهم بخل شديد في الانصياع!

سبحان الله، عندما أُمر إبراهيم -عليه السلام - أن يذبح ابنه أسلم وتله للجبين، أما هم عندما أُمروا أن يذبحوا بقرة فَذبحوها وما كادوا يفعلون، تخيلوا تفاوت الاستجابة!!

هكذا حال الناس:
- من الناس إذا أمرتهم أن يقدموا كل شيء لله يقدمونه.
- ومن الناس إذا أمرتهم أن يدفعوا مبلغ بسيط يقولون هذا كثير!!
وهذا يرجع إلى ضعف الإيمان، أو قوة الإيمان، وقوة الحضور مع الله جل وعلا، والثقة بالله جل وعلا، واليقين بما عند الله جل وعلا.

قال: "لعلَّ من فوائد تأخير ذكر ذلك القتيل عن ذكر الأمر بذبح البقرة في قصة موسى مع بني إسرائيل؛ لأن السياق سياق ذم لبني إسرائيل، وتعداد -لأن عندهم كذا شيء يذمون عليه-، وتعداد ما جرى لهم مما يقرر ذلك."

يقرر أنهم قوم يستدركون على الله.

"فلو قدم ذكر القتيل على الأمر بذبح البقرة لصارت قصة واحدة، وهي في الأصل قصة واحدة وقضية واحدة، متداخل بعضها في ظل بعض، ففَصل هذا من هذا؛ ليتبين ذمهم وسوء فعالهم في القضيتين "

إذًا لماذا فصل هذا عن هذا؟
حتى يتبيّن سوء فعالهم في القضيتين؛ ولهذا أتى في ابتداء كل منهما بـ(إذ) الدالة على تذكر تلك الحال وتصوريها.

فقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً}

[البقرة:٦٧]
ثم قال: {وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ} [البقرة:٧٢]
وليَرتب عليه أيضًا ما ذكره بعده من قوله: {فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ} [البقرة: ٧٣]
إلى آخر الآيات، والله أعلم.

إذًا عندما يريد السياق أن يعدد مواطن الذم، يذكر القصة مفصولة بمشاهد؛ حتى يبيّن أنه في كل مشهد مذمومون.

- في مشهد الاستدراك على الله في مسألة البقرة مذمومون .
- ثم في مشهد أنهم قتلوا نفسًا { فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ} واستخفوا أمرهم والله تبارك وتعالى سيخرج ما كتموا من كتمان الشهادة الحق، وكتمان القول من القاتل وغير ذلك، هذا موطن ذم أخر. فالسياق يريد أن يُعدد مَذام بني إسرائيل ففصل القصتين.

قال: "ويقارب هذا ما ذكر الله في قصة مريم، حين أثنى عليها بنعم الظاهرة والباطنة هي ووالدتها، فذكر حالها وكمالها أوّلًا، وأن الله جل وعلا جعلها في كفالة زكريا؛ لتتربى تربيةً حسنة، وتتأدب، وتتعلم، وذكر اجتهادها في مُلازمة محرابها، واستجابة دعاء أمها، وأنه تقبلها بقبول حسن، وأنبتها نباتًا حسنًا، كل هذا قبل أن يذكر قصة عيسى عليه السلام".

لماذا؟
لأن السياق يريد أن يبين مدائح مريم -عليها السلام-.

قال: "قبل ذكر اختصام بني إسرائيل فيها واقتراعهم عليها ، لينبه تعالى أن هذا مقصود، وهذا مقصود، وأن لها مدحًا وكمالاً في حال اخْتصامهم عليها، ومدحًا وكمالًا في حال نشأتها وعبادتها وتيسير الله لها أمورها".

ومن فوائد ذلك :أن تقديم الغايات، والمقاصد، والنهايات أهم من تقديم الوسائل؛ فالاخْتصاص من باب الوسائل، وما ذكر قبله من باب المقاصد والله أعلم، وأحكم.

إذًا الله تبارك وتعالى دائمًا يقدم كثير من الأمور على بعض الأمور للاختصاص، يقدم الغاية على الوسيلة، يقدم الأمر المقصود عن الوسيلة إليه.

ففي سياق مدح إنسان يقدم المدح الشخصي، ثمّ بعد ذلك القصة التي تدل زيادة على مدحه، فَمريم هي ممدوحة في ذاتها، ثمّ مع ذلك اختصام الملأ(اختصام ملأ بني اسرائيل)من الذي يكفُلها؟

هذا لأنها ممدوحة فالناس يتنافسون في كفالتها، وهكذا فيقدم الغاية على الوسيلة، طبعًا هذه نظرة دقيقة جداً.

■■ قال تعالى: {أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ} [البقرة:١٨٤]

قال: أعم من قوله: {في سفر} ليدخل فيه من أقام في بلد، أو برية، ولم يقطع سفره، بل هو على سفر؛ وإن لم يكن في سفر.

ما معنى ذلك؟

من كان في الطريق لازال في الصحراء، لم يصل للمدينة الأخرى هو ليس في سفر، هو ليس في المدينة التي سافر إليها؛ ولكنه على سفر؛ فهذا يجوز له أن يُرخص له أن يُفطر.

إذًا كلمة على سفر تشتمل في سفر، أو مازال على الطريق إلى السفر فهذا يُرخص له في الفِطر، ويُرخص له في قِصر الصلاة، وفي جمعها أيضًا.

■■ قال تعالى: { فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} [البقرة: ١٨٤]

يدل على أن المُعتبر مُجرد العِدة لا مقدارها في الطول والقِصر، والحر والبرد، ولا وجوب الفرض وعدمه، ولا ترتيب ولا تفريق، ويُقرر هذا قوله تعالى: {يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ} [البقرة: ١٨٥]

إذًا من أفطر أيام في رمضان، {فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}

هل متتابعين؟
هل بعد رمضان مباشرة؟
هل في أيام الحر، أم في أيام البرد؟
الجواب: في أي يوم المهم أنك تصوم هذه الأيام، ولا تؤجلها للعام الذي بعده إلا بعذر.